مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (4)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (4) 2013

جدليّة العلاقة بين الداخل والخارج في عالم عبد الرحمن منيف الروائي
" رواية حين تركنا الجسر نموذجاً "

الدكتور محمد مروشيه*

(تاريخ الإيداع 4 / 6 / 2012. قبل للنشر في 26 / 7 / 2012)

□ ملخّص □

مبتغى هذا البحث يتوقف عند جدلية العلاقة بين الداخل والخارج في روائية عبد الرحمن منيف ليكشف جوهر الصراع بين الشرق والغرب، ويجلو أشكال توظيف هذه العلاقة وانعكاساتها على الواقع العربي ، وموقف الإنسان في الغرب– الشرق من هذه العلاقة.

كما يهتم البحث بمناقشة القضايا الإشكالية المثارة حول آفاق الحلم العربي الذي كان ينوس بين فضائين: الأول هو التاريخ العربي بإخفاقاته ونكوصه، والفضاء الثاني هو نجاح العالم الآخر(الخارج) في بناء عالم جديد يقوم على النقد والتجريب والاكتشاف.

الكلمات المفتاحيّة: جدليّة العلاقة، الداخل والخارج ، الاكتشاف، الاستبداد والحريّة.

* **مدرس– قسم اللغة العربيّة– كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة– جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (34) العدد (4)2012
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (34) No. (4) 2013

The Dialectics of Relationship between Abdul Rahman Muneef's Internal and External Narrative World, with Special Reference to *When We Left the Bridge*

Dr. Mohammad Marosheh*

(Received 4 / 6 / 2012. Accepted 26 / 7 / 2012)

□ ABSTRACT □

This paper addresses the dialectics of the relationship between Abdul Rahman Muneef's internal and external narrative world as presented in his *When We Left the Bridge*, so as to explore the essence of the conflict between the East and the West. It also tries to foreground the forms through which this relationship is employed and its implications for the condition of the Arab World as well as the attitude of the individual in both East and West toward that relationship.

Furthermore, the paper discusses problematic issues related to the prospects of the Arab Dream, which alternates between two spaces: first, Arab history with its failures and setbacks; second, the success of the West in constructing a new world based on experimentation and exploration.

Keywords: Dialectics of relationship, Internal and external, Despotism and freedom.

***Assistant Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

مما لاشك فيه أن الرواية من حيث هي بنية وافدة حملت معها الإغراء بالأشكال الغربية على أنها أنساق لم تكن الثقافة العربية قد عهدتها، وبالمقابل فإن تلك الأشكال قبلت أن تتوطن في الثقافة العربيّة بعد أن قطعت شوطاً من النزاع مع الأصوليات الأدبيّة المتشخّصة بالشعر الإحيائي وعلوم اللغة ، وما يسمّى بالثوابت.

لقد حملت الرواية على يد" نجيب محفوظ" أولاً مشروعها ومشروعيتها، ثم استثمرمن بعده كتّاب عرب المشروعيّة ليوظّفوا الرواية في تصوراتهم ومنهم حنا مينة وعبد الرحمن منيف وهاني الراهب، وآخرون .

وفي إثر هذا يكتشف الدارس للمتون الروائية التي أنتجها عبد الرحمن منيف أن الهمّ الأكبر الشاغل للكاتب لم يكن تأصيل الرواية بوصفها جنساً أدبياً في أدبنا الحديث وحسب، وإنما كان البحث الفكري والسياسي مجال انشغاله ،لكنه وجد (الرواية) عالمياً تنوب عن المؤرخ في قراءة التاريخ وفي كتابته للأجيال القادمة . ويؤثر عن "إنجلز" في حديثه عن" بلزاك" قوله: " تعلمت منه ، حتى فيما يخص دقائق المسائل الاقتصاديّة ، أكثر مما تعلمت من جميع كتب المؤرخين والاقتصاديين والاختصاصيين المهنيين جميعاً في عصره" [1] ومن هنا نرى أن عبد الرحمن منيف ظل – في رواياته – ملحاً على الطبيعة المادية والتاريخية لبنية المجتمع، وقد طرح في عالمه الروائي إشكالية الانعكاس الوافدة إلى أدبه من خلال تأثره بنظرية الانعكاس عند "لوكاتش"، فرأى أن العمل الأدبي(الرواية) يعكس العملية المتكاملة للحياة .

وكما دعت الرواية الواقعية في أوروبا إلى تحطيم النزعة الطبيعية، دعا منيف إلى تفكيك التراكمات التاريخية العربية بأدوات من لغة الأدب لا من لغة (السياسة) .

فالعالم– كما نرى– نظام اجتماعي ، وآخر طبيعي ،وثالث ثقافي يكثفّه الروائي ، على أنه الأدب الأكثر أمناً على التاريخ ' فالتقدم التاريخي لم يعد عشوائياً، بل هو حال من (الجدلي) في الطبيعة والمجتمع والفكر . ورأى " منيف" أن داء الفكر العربي يكمن في أنه لا يدرك الوجود المتحرك للإنسان في تاريخ متحرك ، وقد أقر عبر الأشكال الروائية بضرورة التجريب الشكلي من خلال مقولة لم يصرح بها، إنما وقع عليها رأينا في أبنيته الروائية، مؤداها : إن وحدة العمل توازي الوحدة الشاملة الممتدة للعالم نفسه .

وفي كل عمل روائي كان له توجهه الذي لا يغاير التوجه المركزي ، وقد بدا أنه بدأ من العمق ، عمق الفرد ، عمق التاريخ، عمق اللغة. ولعل مسألة العودة إلى عمومية الشرق، وخصوصية الموضوع كانت الشاغل الأول في أعماله الروائية .

أهمية البحث وأهدافه :

لعل أهمية البحث في العلاقة بين المحلي والعالمي في روائية عبد الرحمن منيف تأتي من مصدرين : الأول هو قدرته على الإفادة من الإنتاج الروائي العالمي بنسقيه (الأدب الروائي الروسي ، والأدب الأمريكي) ، والثاني هو الثقافة العربيّة والتاريخ العربي الذي تراكم في مخيّلته على أنه يشكّل بنيّة متناقضة ، وتناقضها واحد من أسباب غناها ، وهذا ما دفعنا لأن نتلمس– عبر إنتاجه الروائي _ ذينك المصدرين .

وتكمن أهداف البحث في أنه يركز على جدل العلاقة بين الداخل والخارج من خلال توظيف الفن الروائي

---

[1]- **غنيمي هلال، محمد : النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ،بيروت1987، ص516**

في مناهضة اليقينيات والثوابت في الواقع والتاريخ والفن ، وتبيان موقف الإنسان (العربي– الغربي) من طبيعة الصراع بين الشرق والغرب .

منهجيّة البحث :

يستند البحث إلى ما يعرف بالدراسة النصيّة التي نستطيع من خلالها الدخول إلى نقطة الالتقاء بين الثقافة العربيّة والثقافة الغربيّة في محاولة لكشف العلاقة بين الثقافتين.

ومن هنا فقد ارتأينا أن نعتمد على المنهج التحليلي المقارن الذي – من خلاله – يمكن تتبع مسار عبد الرحمن منيف الروائي ، واكتشاف نقطتي التواصل والتفاضل بين الداخل والخارج.

أولاً : الداخل والخارج في عالم عبد الرحمن منيف الروائي :

منذ أن أظهر "عبد الرحمن منيف "روايته (الأشجار واغتيال مرزوق) 1973، وهو معروف لدى القارئ العربي عموماً، والمثقف المختص خصوصاً بأنه مفكر سياسي أكثر منه كاتباً أو روائياً ، ولعله معروف بصيغة أخرى، أكثر تحديداً ودقة، إنه الروائي السياسي المنشغل دوماً بقضية مركزية لا يفارقها ، قضية الشرق والغرب ، الداخل والخارج ، الاستبداد والحرية ، لكنه يوزع اهتمامه بالمسألة الشرقية على روايات متعددة ذات عناوين متباينة ، لكنها كلها مشروع عمل رؤيا . لعلاقة العرب بالغرب بشقيه الأوروبي والأمريكي، لكنه اتجه أولاً إلى المرجعية الداخلية .

من هنا نكتشف أن المسألة واحدة ، والنماذج البشرية تتكرر عبر تداخل الأمكنة والأزمنة بأسمائها نفسها ، حتى بعض أسماء الحيوانات " الكلب وردان " ينتقل من رواية (حين تركنا الجسر) 1976 ، إلى روايته (الآن هنا) 1991 ، إذ لا يبدو الكاتب مقتنعاً بإقامة الحدود بين العوالم بعضها ببعض ، فيبادل بين مواقعها، وكأنه منذ روايته الأولى(الأشجار واغتيال مرزوق) ما يزال يرى في الواقع رواية مستمرة . وعبر هذه الرؤيا، نشير إلى مقولة نسبت إلى الروائي الإنكليزي" سومرست موم": "إن الكاتب لا يكتب إلا قصة واحدة ، والباقي تكرار لهذه القصة بطرق مختلفة " [2].

ويمكننا أن نلحظ (شرق المتوسط الأولى) 1975 ، ورواية (شرق المتوسط مرة أخرى) 1991 ، أي بعد ستة عشر عاماً عاد إلى العنوان نفسه ، عاد إلى قضية مهمة جداً ، وهي مقولة الحرية بوصفها موضوعاً مفتقداً في بلدان تقع على حامل واحد . وهو العداء لها . بلدان لا تتفق إلا بالبعد عن الحرية السياسية ، وفي رفض السعي نحو مجتمع بديل ، وذلك للإحساس التاريخي بالاكتمال .

ثانياً: جدل العلاقة بين المحلي والعالمي :

تتجلى هذه العلاقة في عالم "عبد الرحمن منيف" ، بل نراه يلح عليها في أعماله الروائية كافة. وقد وجدت نفسها في المستوى السياسي قبل الفني ، وقد امتدت إلى أشكال الدولة ومؤسساتها ، ومستويات الثقافة.

إن العلاقة بين الشرق والغرب مقولة تغاير وتمايز، وهي مقولة عموميّة ، ينوب عنها مقولة خصوصيّة هي (المحلي والعالمي) فالعموم سياسي، اقتصادي، تاريخي، والخصوصي مخصوص بالفن والأدب، وعبر تغايرهما وتمايزهما يتشكل الشرق (العرب) على هيئة خاصة، ولكن التشكل العربي لم يكن من قبل الغرب مقصوداً لذاته ، إنما كان استجابة لمصالح الغرب في انتقالة العوالم الشرقيّة، ولاسيما العرب ،من الطور العثماني المتخلف إلى الطور الغربي المتقدم، ولكن تلك الانتقالة كانت تعني للغرب الالتحاق بما تقتضيه مصالحه ، في حين توهم العرب أنهم بدؤوا

[2]- الخطيب ، محمد كامل . السهم والدائرة، دار الفارابي ،بيروت ،1979، ص101

مشروع النهضة، وقد أظهر" منيف" الفارق بين الرؤيتين من خلال شخصيّة "بيتر ماكدونالد" في روايته (سباق المسافات الطويلة) 1983 ، وهذه الشخصيّة تراءت في الرواية مزدوجة التفكير ، فهي تريد معرفة الشرق كإكمال لمشروع الاستشراق، وكقراءة فرديّة خارج المشروع الاستشراقي لعالم الشرق ، ومما يرشح عن هذه النمذجة للشخصيّة الروائية أن العرب بدورهم لم ينقلوا إلى العالم الغربي صورة أمينة عن بلادهم ، بل إن الصورة المنقولة تقطع التواصل بين الطرفين . وقد بيّن "منيف "هذه الظاهرة:

(أنت في الشرق يا مستر ماكدونالد، ومن ذلك أن كلّ شيء في الشرق مختلف عن بريطانيا عن أوربا –عن العالم كله..... بدءاً من الملابس وانتهاء بالموت .....إن ملابس الشرقيين تعكس طبيعتهم وتفكيرهم .....وأقل ما يوصف به أنه دليل واضح وأكيد على ازدواجيّة الشخصيّة لدى هؤلاء الشرقيين)[3]

لقد أراد" منيف" أن يعطي للقارئ العربي فرصة للاطلاع على الغربي كيف يفهمه ؟ ، وكيف ينظر إليه ؟ ، لا ليكتفي العربي القارئ بالاطلاع ، وإنما ليعيد صياغة موقفه من (الغربي) ومن حركة الاستشراق ومنعكساتها في ترجيح الغرب على الشرق ، كما حاول في الوقت ذاته تخليص العربي من وهمه الذاتي من خلال معاينة الشخصية العربية السياسية والثقافية والشعبية ، معاينة دقيقة ، ليتسنى لها فرصة التكون الجديد القائم على وعي الذات وعلى قراءة واسعة وعميقة للعالم ، فمفهوم الاستشراق مختلف عن مفهوم أبناء الوطن للعلاقة بين الشرق والغرب ، أو لاستعارة المكان الآخر لتأسيس الحلم الإمبريالي .

" فالغرب في محاولة تفوقه ، وبالتالي تبرير سيطرته ، ولإظهار عدم وجود علاقة بين نهضته والعرب ، اعتمد نظرة استشرافية متميزة تتلخص بوجود قطبين ، ضعيف يخضع للقوي ، ومتخلف . يجب أن يمتثل للقوي . وبالتالي إلى نشوء غرب قوي يقابله شرق ضعيف ....." [4] .

وقد أظهر" منيف" في (شرق المتوسط) كثيراً من الجوانب الإيجابية في المجتمع الأوروبي ، وخاصة في المدينة الحقوقية (حقوق الإنسان) من خلال اكتشاف بطل الرواية " رجب " الذي غادر شرق المتوسط (بلاده) إلى أوروبا (فرنسا) للعلاج ، وهناك يكتشف الغرب ، ويتضح له أن الغرب قد دفع ثمناً للحرية السياسية ، لا بد أن يدفعها الإنسان في الشرق ، لذلك عاد ليؤسس روح التفاؤل في الجيل الجديد . الأطفال . الناشئة ، يقول :

"سأبقى ثابتاً، أخرج من الميناء وأدق الباب والضحكة تملأ وجهي ، حتى إذا رأيت الصغار قبلتهم بطريقة تختلف عن الطريقة التي قبلتهم بها قبل ثلاثة أشهر .... وكان ممكناً أن أبقى .... عدت لأنني لا أستطيع أن أبقى ... " [5]

ومن هنا نقول إنه مع وجود كل هذا التمايز والتباين بين الشرق والغرب ، غير أنه لا يصل إلى درجة القطيعة بين المجتمعين ،لأن لقاء الشرق بالغرب عند "عبد الرحمن

منيف "يتخذ (وضعاً) حضارياً – واقعياً، إنه لقاء الشرق بالغرب كحضارتين مختلفتين من حيث الأساس ، أي من حيث المنبع والطريق والمصب ..... لكنه تحديداً لقاء التخلف بالتقدم ، لقاء يجعل المتخلف كشخص يحاول ، وقد اكتسب الحضارة الحديثة ، العودة إلى مجتمعه ليشارك في إيصال هذه الحضارة إلى هذا المجتمع " [6]

---

[3] –**منيف، عبد الرحمن .سباق المسافات الطويلة،المؤسسة العربية للدراسات، بيروت1983.ص134.**

[4] –**منيف، عبد الرحمن، الرواية العربية والحداثة، مجلة قضايا وشهادات ، مؤسسة عيبال ، العدد 4 ، دمشق ،1990، ص 124**

[5] – **منيف، عبد الرحمن.شرق المتوسط، ص232.**

[6] – **الخطيب،محمد كامل.المغامرة المعقدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،1976، ص134.**

الوطن الجديد في الرواية الجديدة :

لقد اكتشف "منيف" من خلال تجربته السياسية (القومية والاشتراكيّة) أن المخرج الأكيد للأمة التي ينتمي إليها لا يمكن أن يكون أحاديّاً ، فلا بد من امتحان المشاريع السياسية التي أرادتها النخب العربيّة حلاً بديلاً عن مشروع النهضة المخفق ، والامتحان هو قدرة تلك المشاريع على اختراق البنى العربيّة عمقاً وسطحاً في(التاريخ –الثقافة– الدولة)، ومن هنا أراد أن يفعل بالرواية ما لم يقو على فعله من خلال المشروع السياسي . وقد واجه منيف متنين تاريخيين متوضعين كقوتين قامعتين لأي مشروع نهضوي هما : العروبة والإسلام . فالعروبة منذ البداوة إلى نهاية الدولة العثمانيّة 1909 كانت متحدة بالإسلام ، والإسلام –من خلال دولة الخلافة– ألغى الحدود بين الأمم ، وفرض العربيّة لغة مركزيّة على الأمم المعتنقة له ، وقد قبلت الهزيمة على المستويات كافة .

لقد سعى" منيف" إلى تأقلم الأشكال الفنية في العالم العربي ، لكنه اشترط لنجاحه نجاح الروائي في اكتشاف العالم البشري والروحي والسياسي بأدوات الفن ، ويبدو منيف متأثراً بتجربة "ج لوكاتش" الذي " يعد الرواية الشكل الأدبي الرئيس للعالم " [7]

وإذا ما انتقلنا إلى رواية (حين تركن الجسر) 1976، التي تمثل نقطة ارتكاز هذا البحث، فإننا نرى أن" منيف" ينتزع من التاريخ العربي الحديث بؤرة مركزيّة ، وهي هزيمة حزيران التي عدّها واصلاً بين هزيمة العقل العربي أمام سلطة النقل برعاية دولة الخلافة ،

وفاصلاً بين أوهام العرب من خلال سقوط مشروع النهضة ، وبين ضرورة إنتاج نهضة جديدة .

إن" منيف "يرسّخ استقلالية اللغة النثرية عن الهياكل الشعريّة في اللغة ، ويعتمد لغة مباشرة تعبّر عن الفرد العربي المهزوم في حزيران 1967، الغاضب الحانق ، الرافض لذاته، اللاعن المستمر لها ، الدائم البحث عن مخرج يرى من خلاله عالماً غير عالم الهزيمة .

إن بطلها " زكي النداوي " لا يترك مخرجاً أو فرصة إلا ويحاول من خلالها العبور إلى مخرج يحقق من خلاله وجوده النوعي (الحرية) في محاولة محمومة لتجاوز وجوده التراكمي (الهزيمة) لقد نقل منيف عبر" زكي النداوي "هموم المثقف العربي، وهو يحاصر ذاته، ويؤنب وجوده (حياته) على وجوده (استمرار الهزيمة) فهو لم يفعل ما يكفي لتلافي الهزيمة، ولم يغفل خلالها، وهوغير قادر على التأويل أو التفسير لما حدث . من هنا يمنح (منيف) فئة المثقفين العرب فرصة لإعادة صياغة الذات في الوقت الذي يصفهم فيه بالعجز والتراجع ، يبدأ الرواية جاذباً القارئ :

" اصرخي يا بنات آوى، اصرخي بفرح الأبالسة حتى تتشقق مؤخراتك النتنة ... اضحكي ، أعرف هذه الضحكات أعرفها تماماً، سأجعلها كما قال شاعر أبله ضحكاً كالبكاء ، سأدفنها في مزبلة وأبول فوقها " [8]

إن إثارة المشكلة مع المثقف مسألة تقع خارج الهموم الروائية ، لكنها هنا ضرورة وذلك لاعتقاد الكاتب أنه ينتقد نفسه ، فالمثقف التقدمي يحتاج إلى إعادة المغامرة مع تراثه الروحي وجغرافيته الثقافية .

إنه يشعر القارئ بالأزمة، بالارتكاسة، بوجود مرفوض، تسعفه لغة واقعية أفرزتها انفعالاته . عبر البطل . الرفضية، ليصدم القارئ الذي اعتاد تسهيل الحياة وتجميلها والتصبر عليها في مقدمات القصيدة العربية التي تساهم في تخدير النفوس، بينما يحاول هو في مقدمة الرواية تحريك الرؤوس، رؤوس البشر الذين منحتهم الهزيمة الحق الإجباري

---

[7] – **لوكاتش، جورج . الرواية كملحمة بورجوازية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت1981،ص34.**

[8] –**منيف،عبد الرحمن. حين تركنا الجسر ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ،1976 ، ص9.**

في لي العنق ، ومع محاولة " منيف " دفع الآلام إلى حدها الأقصى من خلال تحطيم المهزوم في الداخل، يقول : " أنا رجل مخصي حتى الثمالة ... والطيور خاصة البط تعرف ذلك" [9]

لم تعرف لغة الرواية والشعر من قبل عند العرب هذا العنف في تحقير الذات إلا بعد 1967، ويعود ذلك مرده إلى مسألتين : الأولى هزيمة حزيران 1967 ، وكثير هم الشعراء الذين مارسوا تحقير الذات القومية والتاريخية إلى حد بلغت فيه الأمور جلد الذات ، ومن أهم تلك التعنيفات ما كتبه نزار قباني (أجراس العودة . هوامش على دفتر النكسة) [10] ثم تابع بعد ذلك أمل دنقل(البكاء بين يدي زرقاء اليمامة)[11] .

الثانية : هي المصارحة التي يلحّ عليها" منيف" في الرواية ، بين الروائي وعالمه ، وبين الفرد النموذج وذاته ، وفي الرواية نفسها شكل آخر لفهم الروائي" منيف "عالمه الشرقي (الوطن) إنه عبر (زكي النداوي) البطل المهزوم الساعي لتجاوز الهزيمة ، يمضي بالرواية في مغامرة كبيرة – مغامرة الصيد البري – على غرار مغامرة الروائيين الأمريكيين (في البحار)" هرمان ميلغل" في ملحمته (موبي ديك) ومغامرة "أرنست همنغواي" في روايته (الشيخ والبحر)[12] ، ومن هنا نكتشف أن كلتا الروايتين تروي "قصة صياد في صراعه للفوز بالطريدة ، التي هي لؤلؤة العمر كله . وهي عند سانتياغو ،صياد "الشيخ والبحر" سمكة مارلين كبيرة يزيد حجمها عن حجم قاربه ،أما عند "زكي النداوي" صياد "حين تركنا الجسر" فهي بطة أسطوريّة في جمالها وجلالها وقوس قزح ألوانها" [13]

وإذا كان المجال الجغرافي عند الأمريكيين هو عالم البحار – المحيط – فإن المجال عند "منيف" هو عالم البر من خلال المستنقعات والغياض والبساتين عندما يتكلم عن الشام والعراق ، وأما عندما يتكلم عن الجزيرة العربية فإن الصحراء هي مركزية المدى المكاني في مخيلته ، وللصحراء صور مختلفة في نسيجه الروائي ، أهمها الصورة البكر التي أراد تثبيتها قبل أن يداهمها العصر النفطي .

وعندما يتكلّم عن العراق "أرض السواد" [14] فإنه يستفيض في القص"السرد"والتفصيل كحديثه عن فيضان دجلة ، والاحتفاء بالمواسم ، ثمّ يسّرح خياله في سواد العراق"من موقع بغداد الحالية إلى خليج البصرة "الذي كان يسمى في العصور القديمة "سهل شنعار"، وقد لاحظنا محبّته لجغرافيا العراق أكثر من محبته لصحراء الجزيرة وبوادي الشام ، كأن تعلقه بالعراق كتعلّق الوليد بأمه .

وإننا نرجح أن يكون" منيف" قد أفاد من تجارب أدب البحر الأمريكي ، لأن هناك تشابهاً بين الرواية العربية والأمريكية في محاولة الانفصال عن المركزية الأوروبية ، فالأمريكيون أكدوا الشخصية المستقلة . الفرد يواجه الطبيعة والعالم . الفرد لا ينهزم . الفرد مغامر بطبيعته ، قد يدركه الموت ولكنه يدرك مراده قبل إدراك الموت له ، أما عند العرب فيبدو الأمر مزدوجاً ، إنه انعتاق من هزيمة الشرق التاريخية أمام الغرب منذ الحروب الصليبية 1097–1291 حتى هزيمة حزيران1967 ، وهو محاولة للانعتاق من هزيمة الشرق أمام نفسه ، من هزيمة العقل أمام النقل (القرن الحادي عشر الميلادي) .

---

[9] – منيف،عبد الرحمن. حين تركنا الجسر.ص20.

[10] – قباني ، نزار . الأعمال السياسية الكاملة، هوامش على دفتر النكسة ، 1999، ط2، ص 471 .

[11] – دنقل ، أمل، الأعمال الشعرية الكاملة ، البكاء بين يدي زرقاء اليمامة ، دار العودة ، بيروت، ط2، 1985 م. ص 121–126

[12] – همنغواي، آرنست، الشيخ والبحر، ترجمة أحمد محمد حيدر، المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت، لبنان، بلا تاريخ

[13] – طرابيشي، جورج. رمزيّة المرأة في الرواية العربيّة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،1981، ص6.

[14] – منيف، عبد الرحمن . أرض السواد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، لبنان، ط 4 ، 2000 م ،

لذلك تجد المغامرة الروائية العربية مغامرة في البادية ، الصحراء ، المستنقعات ، ... في الأرياف ، وحول رواية همنغواي ، (الشيخ والبحر) ، ورواية" منيف" (حين تركنا الجسر) ، يقول جورج طرابيشي :

" فموقف همنغواي إزاء الهزيمة استمرار بنوع ما للموقف البرومثيوسي من الطبيعة ، وبالتالي استمرار للموقف الحضاري الأوروبي ، ابتداء من عصر النهضة وبدايات الرأسمالية، وهو موقف يقوم في وجه أساسي من وجوهه على مبدأ تطويع الطبيعة وتحويلها والسيطرة عليها ...." [15]

ويبدو أن الفعل الأوربي ما كان إلا فعلاً متتابعاً ، فالحضارة الغربيّة بنيت على مراحل ، بدأت من تجفيف المستنقعات وبناء المستوطنات الزراعيّة ، إلى معرفة العالم من خلال الكشوف الجغرافيّة ، إلى الحلم بالمجتمع الجديد ، إلى الحلم بالفضاء ، كما يظهر هذا لنا عند بطل الحرب والسلم لـ"تولستوي" حيث يظهر الكاتب أن جيش القيصر بعد أن يهزم نابليون 1812 لابد أن ينتقل إلى المرحلة الأخرى ، والمرحلة الأخرى كانت قد أفصحت عنها رواية "مكسيم غوركي" (حياة كلمنصين) ،حيث تلوح في أفق الأبطال فكرة ارتياد الفضاء.

لقد رمز "همنغواي" إلى الهدف بسمكة (المارلين) ورمز" منيف" إلى الغاية (بالبطة) وقد أسماها " منيف " مليكتي، عبر البطل "زكي النداوي"، وكل حاول اصطياد الطريدة، حاول تحقيق الهدف، لكن منيفاً أعطى بطله النداوي تصميماً متفاقماً رغم ضعفه الداخلي على المستوى الروحي والمستوى الرجولي، لأنه يريد أن يتجاوز الشرق (العالم العربي) فكر الهزيمة ونتائجها رغم تخلفه وعجزه وضعفه ، والتجاوز يحتاج إلى إعادة بناء الذات الجديدة من خلال الخروج من سحر التاريخ إلى واقعيّة الحياة "أيها النهر الذي أحببت أن أعبره .....أنت موجود دائماً ، وإذا سرقوا ذلك الجسر فسوف نبني غيره " [16]. ومن هنا نقول إن الجسر ربما ينفتح على دلالة المثاقفة بين الشرق والغرب ، إذ لابد للإنسان في الشرق من العودة إلى تراثه إلى جذوره حيث يجد روحه وأصالته فيستفيد من"العلم الغربي والثقافة الغربيّة في إحياء ماضيه نفسه وتراثه" [17]

لقد أراد" منيف" . بل حقق . من الرواية الفكرة التي سبق أن ذكرناها ، وهي أن الإنسان الذي تتالت عليه الهزائم . وإن ضعف . يستطيع أن ينشد هدفاً ، ويستطيع أن يحققه"إنه يوحي بطريقة غير مباشرة بأن الحزن والخيبة لا يؤديان بالضرورة إلى التفتت والاضمحلال، بل هما قيمتان رئيستان في الحياة ، تجربتان يمر بهما الناس وينصهرون من خلالهما، وقد تتبدل نسب تركيبهم الداخلي ولكنهم يظلون أحياء موجودين قادرين على الاستمرار " [18]. وقد جعل "منيف" لهذه الفكرة ما يقابلها في الرواية .... وهي أن زكي النداوي قد تجاوز العثرات وتصيد مليكة البط " (الهدف) .

يقول منيف في الرواية :

" للمنتصرين قاموس يختلف عن قاموس المهزومين ، ويحق لي أن أرقص الآن .... فكان واجبنا بعد أن بنينا الجسر أن نعبره ... رأيتها في ضوء القمر ... كانت أقبح بومة تراها العين ... " [19]

إذا كان" منيف" قد أفاد من تجربة (الشيخ والبحر) لهمنغواي في فعل المغامرة ، فإنه أفاد بشكل يضمن للمفكر السياسي والروائي الشرقي (العربي) استقلاله وتوظيفه للفن الروائي في مناهضة اليقينات والثوابت في الواقع والتاريخ

---

[15] – طرابيشي، جورج. رمزية المرأة في الرواية العربية، ص7–8.

[16] –منيف ، عبد الرحمن. حين تركنا الجسر، ص192.

[17] – الخطيب ، د.حسام . روايات تحت المجهر،اتحاد كتّاب العرب، دمشق،1983،ص277.

[18] – سالم، جورج. المغامرة الروائيّة، اتحاد كتّاب العرب، دمشق،1973، ص171.

[19] – منيف،عبد الرحمن.حين تركنا الجسر، ص209–210.

والفن ، لقد عبر" زكي النداوي" عن موت الهدف بعد تحقيقه ، إنه يريد هدفاً آخر ، الاستمرار في الصراع ، والاستمرار في الصراع مقولة جدليّة غايتها إنتاج انتصار جديد . .

إن مفهوم البطولة عند "منيف" مفهوم مركب ، فلا يوجد بطل من أبطاله يفصح وحده عن شخصه ، ولكن هذا يبدو أكثر وضوحاً في بطل (حين تركنا الجسر) ، فحوار البطل مع ذاته هو حوار" عبد الرحمن منيف" مع نفسه ،مع التاريخ العربي ، وتناقض شخصيّة (النداوي) تفصح عن المراحل الفكريّة والسياسية لتكوّن "منيف" نفسه ، وتكوّن"منيف" يفصح هو الآخر عن نزاع الشخصيّة السياسية العربيّة مع اليقينيات والثوابت ، وفي قراءته للغرب والشرق ، ثم في اكتشافه أن المشكلة تكمن في الداخل أولاً(التاريخ، المعتقد،الثقافة).

ومن هنا تبدو المهمة الفنية في الفضاء الروائي وشكله وزمنه ونماذجه معقدة للغاية ، هكذا نستطيع أن نسوّغ لمنيف الرفضية واللغة الصعبة، والمباشرة أحياناً، والرمزية أطواراً أخرى في (حين تركنا الجسر) فالشخصية النموذجية في ظروف نموذجية، "زكي النداوي" شخصية ناتجة عن تاريخ من القمع والجبرية، بينما" سانتياغو" في (الشيخ والبحر)، نموذج لاحتضار العصر الأوروبي الكلاسيكي أمام ولادة الوليد الجديد . العصر الأمريكي . الذي أراد له "همنغواي" إنساناً غربياً حراً (وجودي سارتري) أوروبياً آخر .

ومن هنا ندرك أهمية اللحظة التي أطلق فيها "النداوي "طلقة الإصابة ، واقعياً – فنياً ، إنها لحظة البداية ، لحظة التجاوز ، إنها لحظة يتحول فيها التاريخ الكمي إلى بداية نوعية .

كانت تجربة "منيف: في (حين تركنا الجسر) مغامرة تروي عن الفرد المهموم – هزيمة سياسية – 1967 وتروي عن توتره الداخلي وعنفه ، وعصبيته وتوقه إلى صناعة نصر بديل .

ويكاد كاتبنا يقدم حلاً مباشراً لتجاوز هزيمة حزيران 1967، عند طرح فكرة بناء الجسر " لو أن جسراً بني في المدينة لكان آلاف الناس حوله ،يرقبون لحظة ميلاده ،لحظة نموّه. يتناقشون ، يختلفون ، يتوهمونه كبيراً مضاء ..... لم يكن أحد يتصوّر الضياء المنبعث منه عندما تسقط عليه شلالات الضياء من القمر"[20].

ومما نراه لافتاً انتباهة "منيف "إلى رواية" أرنست همنغواي "(الشيخ والبحر) التي شخّص فيها صاحبها نجاح الإنسان الغربي في مقارعة الطبيعة ونقله للمشروع الأوربي من شرق الأطلسي إلى غربه ليؤسس الحلم الإمبريالي في الأرض البكر، حيث تكمن الثروة الجديدة، والثروة تلك تحتاج إلى حفيد النهضة الأوربيّة ليوظفها في نهضة أخرى جديدة، إن شيخ الرواية "سانتياغو" إشارة إلى تعجّز القارة الأوربيّة ، وإشارة أيضاً إلى أن إحياء القارة ممكن بعد الكشوف الجغرافيّة وإقامة عصر جديد يقوم على فكرة جوهريّة (الإنسان الأبيض يقارع الوجود الطبيعي ...يتحطم جسداً...ينتصر فكرة...)، في حين حاول منيف أن يحمّل البطل الشاب "زكي النداوي" الحلم الذي يحمله بوصفه شاباً عربياً أصله من الجزيرة العربيّة ومن أم عراقيّة، وعاش في بلاد الشام ، وتعلّم في مصر وأروبا الشرقيّة، لكن الحلم كان يجول بين فضائين :

الأول هو التاريخ العربي بإخفاقاته ونجاحاته ، والفضاء الثاني هو نجاح العالم الآخر (الخارج) بناء عالم جديد يقوم على النقد والتجريب وهو في هذا يمنح الداخلي (الشرق) فرصة التقدم إلى الحاضر في مواجهة القادم من الخارج بـ (روايات البحر) لأنه يعتقد أن المشكلة في الجغرافيا العربية وفي التاريخ العربي ، وليست في خارجه ، ولئن أجرى

[20] –**منيف، عبد الرحمن، حين تركنا الجسر، ص117.**

قياساً بين (المحلي) وما يناظره من العالمي فإنه يريد من المحلي أن يحضر عالمياً ، ويريد من العالمي أن يحضر في المحلي دون أن يعصف به .

ومما نراه رافداً لرأينا السابق للغة الروائيّة التي استخدمها" منيف" في نسيجه الروائي نلحظ أن الرفضيّة من أهم معالمها ، والرفضيّة أساسها موقف الكاتب من الواقع والتاريخ ، بعد أن فتحت له هزيمة حزيران آفاق النقد التاريخي ، مما أسهم في إعادة قراءة الذات أولاً، والذات التي نعني هي ذات الإنسان العروبي الذي كان يحلم ببناء دولة الوحدة من المحيط إلى الخليج ، ويبني في الوقت نفسه مع هذا الحلم التجربة الاشتراكيّة ، فبعد الهزيمة الحزيرانيّة

اكتشف" منيف" أن حلمه الوحدوي خيال بعيد لايمكن تحقيقه بالأدوات نفسها ، ووجد أيضاً بعد هزيمة المشروع الاشتراكي على المستوى العالمي ،أن الاشتراكيّة العربيّة أقرب ما تكون إلى الخرافة .

ومن هنا كانت لغته الروائيّة تميل إلى الجفاف والاقتضاب والرمزيّة ، وربما مدّها بعناصر غير مرئيّة كالإلهام والشعر والنبوّة . فالجفاف جاء من الحالة السياسية العقيمة ، والاقتضاب جاء من هيمنة السياسي على الفني في شخصيّة "منيف" نفسها ، أما الرمزيّة فقد كانت من مصادر مختلفة أهمها عدم قدرة الكاتب التقدمي على قراءة النصوص التراثيّة قراءة بنيويّة ، فتلك النصوص تحتاج إلى مفكر انتظم في التراث العربي الإسلامي بنيويّاً ووظيفيّاً ، كما فعل (محمد أرتون) في المغرب ، وكما فعل (حسين مروّة) في المشرق .

ولوعدنا إلى رواية (الشيخ والبحر) لرأينا أن العصر الأوربي من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر يتراءى في شخصيّة الشيخ" سانتياغو" على صورتين : الأولى صورة الاحتضار للعصر البرجوازي الأوربي، والصورة الثانية هي صورة الحلم الكوني الذي يعبر المحيط ويؤسس العالم الجديد.

إن زمن البطل الأمريكي "سانتياغو"هو الزمن المفتوح انفتاح المحيط ، في حين أن الزمن عند بطل منيف (النداوي)هو زمن ارتدادي مغلق انغلاق التاريخ العربي ، ولكنه منذر بالانفتاح بعد أن أحدثت الهزة الحزيرانيّة صدعاً في الجدران المغلقة "أعتقد أن زمن النداوي ينتهي بطلقة يطلقها على مليكة البط ، بينما يدوم صراع سانتياغو ثلاثة أيام بلياليها" [21]

وقد تتجلى في رواية منيف (حين تركنا الجسر) صورة سياسية ناتجة عن صورة الطبيعة ، في محاولة منه لتشخيص مقولة (جدل الطبيعة)الناتجة عن الفلسفة (الهيغليّة)، وفي الراوية أيضاً صور لمجتمعات متباينة وحّد بينها المكان (البادية، الصحراء ،الحواضر)، وهذه الصور ناتجة عن الجدل الماركسي في المجتمعات التي أراد منيف تشخيصها في البنية الروائية التي هي معادل للبنيتين : الطبيعيّة والاجتماعيّة .

وهكذا نرى أن رواية (حين تركنا الجسر) غنيّة برموزها ودلالاتها التي تنفتح على فضاء فسيح للعودة إلى الجذور ، والانفتاح على العالم الآخر .

ومن هنا تأتي النهاية حاملة نبرة تفاؤليّة غير متوقعة" في تلك الليلة التي قتل فيها "وردان" قررت. ولم أنس القرار في اليوم التالي. وقبل أن تغيب شمس اليوم الأول كنت قد ضعت في زحام البشر، وبدأت أكتشف الحزن في الوجوه ، وتأكدت أن جميع الرجال يعرفون شيئاً كثيراً عن الجسر، وإنهم ينتظرون..ينتظرون ليفعلوا شيئاً ما"[22]

---

[21] **- طرابيشي، جورج. رمزية المرأة في الرواية العربيّة، ص9.**

[22] **– منيف، عبد الرحمن. حين تركنا الجسر،ص222.**

الخاتمة:

من خلال الدخول إلى العالم الروائي لعبد الرحمن منيف نتبين أنه يحمل مشروعاً نقدياً على مستويين : الأول نقد التاريخ والحاضر ،والثاني إعادة بناء النهضة من جديد .

وبناء على هذا المشروع وجد كاتبنا أن الاعتماد على الأدوات المحلية لا يمكن أن يوصلنا إلى ما تأمل الأمة إلى تحققه، وبالمقابل فإن الاستلاب الكلي من المحلي للعالمي لا يبني الشخصيّة القومية ولا يوصل للنجاح ، بل إلى الالتحاق ومن ثم إلى الإجهاض .

ومما يمكن استنتاجه أن (السياسي والفني) متلازمان في البنية الروائية، تلك البنية التي لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما هي بنية موظفة لصالح مشروع فشل صاحبه في تحقيقه راهناً، ووجد أن الرواية تعمل على تحقيقه مستقبلاً.

المراجع :

1- الخطيب، د.حسام. روايات تحت المجهر ،اتحاد كتّاب العرب،دمشق 1983.

2- الخطيب، محمد كامل. السهم والدائرة ، دار الفارابي ،بيروت1979.

3- الخطيب، محمد كامل. المغامرة المعقدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق1976.

4- دنقل، أمل. الأعمال الشعرية الكاملة "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة"، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1985م

5- سالم ،جورج. المغامرة الروائيّة،اتحاد كتّاب العرب، دمشق 1973.

6- طرابيشي، جورج . رمزيّة المرأة في الرواية العربيّة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت 1981.

7- غنيمي هلال ، د.محمد . النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ،ط4 ،بيروت 1978.

8- قباني، نزار. الأعمال السياسية الكاملة ، المجلد السادس، الطبعة الثانية ، منشورات نزار قباني ، بيروت، لبنان، 1999 م .

9- لوكاتش ، جورج . الرواية كملحمة برجوازية ،ت جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت 1981.

10- منيف، عبد الرحمن. " أرض السواد"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة، 2000 م.

11- منيف، عبد الرحمن. الرواية العربيّة والحداثة، مجلة قضايا وشهادات، مؤسسة عيبال، العدد 4، دمشق 1990.

12- منيف ، عبد الرحمن . الأشجار واغتيال مرزوق ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط1، بيروت 1973.

11- منيف ، عبد الرحمن . الآن هنا ..... أو شرق المتوسط مرة أخرى ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ط4، بيروت ،2001.

12- منيف، عبد الرحمن . حين تركنا الجسر ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط3، بيروت ، 1976 .

13- منيف ، عبد الرحمن . سباق المسافات الطويلة ،المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر ، ط7، بيروت ، 1983.

14- منيف ، عبد الرحمن . شرق المتوسط ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط12، بيروت .1999

15- همنغواي، أرنست. الشيخ والبحر، ترجمة أحمد محمد حيدر، المكتبة العلمية الجديدة، بيروت ، لبنان، بلا تاريخ .